حول نشأة الادب العربي بالمغرب

قرأت في «مجلة المغرب» الغراء عدد رمضان وعدد شوال وذي القعدة من سنة ١٣٥٣ هـ مقالين في «نشأة الادب العربي بالمغرب» وقد أبدى صاحب المقالين نظريات في تاريخ المغرب أقامت عليه ضجة عنيفة في الاوساط العلمية وغير العلمية بالمغرب وبالاخص بفاس وقد أدت هذه الضجة الى طلب محاكمته بصفة جنائية، وأرى أن نظريات هذا الكاتب لا تستوجب هذه الاهمية وخطأه لا يستوجب هذا العقاب وانما الرجل تلميذ مبتدئ في فن التاريخ أخطأ في تطبيق دروسه التاريخية ولم يستفد من فلسفة التاريخ التي هي من برنامج القرويين فيلزم تعليمه وارشاده بما يرشد به التلميذ في الكتاب حيث انه قصر في مراجعة المواد وتجاسر على التفلسف والاستنتاج قبل اتقان الجزئيات، وأيضاً يجب التنبيه ليرتفع الاشكال.

وليس هذا البحث بطريف في بابه بل هو موضوع طرق قبل وحرر المناط فيه وقد رأينا في هذه المجلة نفسها «مجلة المغرب» ذيل عدد ٩ لمحرم سنة ١٣٥٢ وعدد ١١ لربيع الاول سنة ١٣٥٢ بحثاً في هذا الموضوع حاضر به صاحبه (١) في مؤتمر المستشرقين المنعقد بفاس اذ ذاك في جلسة عمومية لا شك ان صاحب «نشأة الادب» حضرها، وها أنا ذا اعتمد من بين المصادر في هذه المناقشة تحريرات تلك المحاضرة التي جمعت اطراف هذا الحديث.

قال الباحث الذي نناقشه في المقال الاول: «ان سليمان بن جرير الذي أرسله الخليفة الماكر الرشيد كان رجلاً بارعاً في المجادلة ذا نبل وأدب وفصاحة... كان يجلس مع المولى ادريس... ويضع احاديث كثيرة في الحط من قدر غير العلويين ويأتي بتفاسير من عنديته يثبت فيها خلافة المولى ادريس وتفوق الشرفاء على جميع الخليقة الخ» فأقول منبهاً له تنبيهاً متواضعاً: ان هذه دعوى تحتاج الى دليل وقد كان المولى ادريس أعلى همة وأسمى قدراً من ان يواطئ سليمان على الكذب على رسول الله وفي دين الله ومن أقرّ الكاذب فهو شريكه وكانت الخلافة ممهدة له من قبل من نصروه وعزّروه وقبل مجيء سليمان ولولا ذلك ما احتاج سليمان الى تجشم الرحلة اليه ولا وجهه الرشيد فلا حاجة لادريس رضي الله عنه الى الالتجاء الى الكذب والبهتان وأخلاقه العالية وعلمه وفضائله المقررة في التاريخ تأبى ذلك فان كان هذا الادعاء منصوصاً عليه بسند صحيح ورواة ثقات فليدل لنا صاحب البحث عليه ببينة وان كان من عنديته فهو خطأ صراح وفكر مستبشع مناقض للامانة ولا يسوغ للمولى ادريس استماع الاحاديث الكاذبة في سبيل غرض سافل وقد جاء يؤيد دين جده الصحيح وهو عمدته فيما يرومه وهو بالمثابة التي ذكر له الباحث نفسه حيث يقول: «شبّ المولى ادريس في بلدة نشأ فيها مثل الامام مالك وشيخه الاوزاعي وغيرهما من العلماء المجتهدين... فأخرج في قالب فقيه ديني شديد الشكيمة ولغوي جيد قاهر الدليل يفهم الحديث كما يفهمه غيره من العلماء ويفسره كما يفسرونه ويستنتج كما يستنتجون...» وكان راشد وزيره وناشر دعايته كما وصفه الباحث نفسه: «ممن يجالسون العلماء والاشراف والامراء وكان آخذاً حظاً من الثقافة العربية لذلك العهد فقد قالوا انه كان مستولياً على العلوم العقلية والنقلية وآخذاً حظه من الادب والنحو واللغة والحديث والتفسير» وننبه الباحث الى ان الاوزاعي لم يكن شيخ مالك ولا من أهل المدينة بل هو شامي.

وقد اغرق الباحث في المقال الثاني حيث اراد التفلسف في قضايا التاريخ وضم الجزئيات بعضها الى بعض ليخرج من ذلك قواعد لنشأة الادب العربي بالمغرب.

قال الباحث: «فان الادب لم يكن له حظ في قيام هذه الدولة كما لم يكن عند أولاد ادريس بعده واحفاده ودولة بني أبي العافية المتوحشة بمكانة... أضف الى ذلك ان الامم البربرية اذ ذاك لم تكن تعرف العربية حتى تستمع لاقوال الشعراء... نستخلص من هذا ان المأتي سنة اللتين قضاهما الادريسيون في دولتهم لم تجل فيها الناحيه العلمية في شيء ولم ترتكز اساليب الدولة الادريسية فيها على العلم والادب... ونحن نستنتج من هذا ان الدولة الادريسية لم تكن دولة علم بالمرة ولم تكن تعرف ان للخلافة رابطة وثيقة بالعلم وان كانت دولة تريد ان تحكم المغرب حكما جافاً لا شخصية للعلم فيه وعلى هذا فهي دولة بربرية باعتبار نشأتها»

هذا ما أرتآه الباحث في المقال الاول وأخذ يفصله في المقال الثاني من كون العروبة لم يكن لها أثر بين البربر ومن كون المغرب

(١) هذه المحاضرة هي لاستاذ هذا الشأن معالي الوزير المجوي.

لم يعرف علماً ولا أدباً قبل الادارسة ومدة دولهم وبعدها ولم يتنبّه الى ان ذلك يناقض ما قدمه نقلاً عن القرطاس واستنتاجاً منه من كون المولى ادريس الثاني وفد عليه مآت من فرسان العرب وعلمائهم « وتقاطرت عليه الوفود من جميع الاصقاع منهم علماء وفقهاء ومنهم ومنهم » وزاد في المقال الثاني بياناً عن كون المغرب بقي يتخبط في الجهل والبربرية الى أمد بعيد بعد ذلك .

فليعلم حضرة الباحث ان المغرب فتح سنة ٦٠ وشقه عقبة بن نافع الفهري من ادناه الى اقصاه لينشر الدين والتعاليم العربية ثم انتقض المغرب على العرب بعد وما لبثوا ان اعادوا فتحه وتدويخه سنة ٦٩ وأقبل حسان بن نعمان فاخضع العصاة ونشر الدين وجعل على المغرب قائده ادريس بن صالح بن منصور الانصاري العربي مؤسس دولة بني منصور بالريف التي كانت عاصمتها تكور هناك وتكونت قبل الادارسة ونشرت الدين والعربية ودامت دهراً هنالك بعدهم .

ثم جاء بعد حسان القائد موسى بن نصير سنة ٨٧ وزاد في نشر الدين والعربية حتى ادخل في حظيرة الاسلام والعروبة اصقاعاً شاسعة بالمغرب الاقصى وجعل مولاه طارقاً عليه وعاصمته طنجة ونظم طارق الجيش من العرب والبربر لغزو اروبا وجعل فيه من حملة القرآن ثلاثمائه لتعليم العربية والدين ولابد أن يكون قد رتب في بقية المغرب اكثر من ذلك وفي ذلك العهد اصطبغ المغرب بالصبغة العربية وتمكنت قدم العرب والعروبة بالمغرب وتقدم العرب والبربر جنباً لجنب لفتح الاندلس ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ وجه عشرة من كبار علماء التابعين للمغرب يعلمون ويهذبون .

بقي العرب والبربر يمتزجان في المغرب والاندلس امتزاج ادب ونسب والعربية تتمكن من نفوس البربر يد فعها حب تزيي المغلوب بزي الغالب وحفظ القرآن الذي هو قوام الدين ودستور المجتمع وقانون الاحكام وقرب البربرية من العربية وضعف البربرية عن العربية في كونها اداة مفاهمة غير تامة ونقصانها في كثير من احوالها عن لغة العرب لغة العلم والدين والادب حتى قدم المولى ادريس سنة ١٧٠ ولم يدع احد انه كان يعرف البربرية ولا احتاج الى ترجمان ولا لاقى صعوبة في المفاهمة ولا ذكر لنا الباحث ان سليمان بن جرير احتاج الى ترجمان عند ما اراد « ان يضع الاحاديث لفائدة دعوة ادريس وجلب قلوب الناس بانواع البلاغة والفصاحة » .

والاصح ان راشداً مولى ادريس والذي جعله كثير من المؤرخين اخاه من الرضاع كان نفسه عربي اللسان حيث أنه على ثبوت كونه بربري الاصل فأبوه هو الذي كان من سبي البربر وراشد ولد في بيت الهاشميين في صميم العروبة لا يعرف للبربرية معنى ولم نسمع بان عبد الرحمن الداخل لما قدم الاندلس على طريق المغرب قبل ادريس احتاج الى ترجمان أو لقي صعوبة في طريقه .

ثم ان المولى ادريس لما قدم المغرب بلغ الى طنجة فوجد أهلها خوارج ولم ير لنفسه هناك نجاحاً فانقلب الى وليلي وكان اهلها خوارج اباضية أو صفرية فعرف كيف يقلبهم عن مذهبهم الى مذهبه السني وحب آل البيت بما فطر عليه من قوة الحجة وسلامة الضمير وصدق النية وذلك كله يدل على ان البربر كانوا على اتصال دائم بالشرق مراقبين لسير مذاهبه وتقلب أفكاره ولا أرى لذلك اداة غير انتشار الثقافة العربية والقرآن بين البربر وهذه حجة تلزم الباحث نفسه حيث يقول : « اذا صح كلام ابن خلدون هذا في أهل سجلماسة فانه كان هناك بعض العلم وكان اهلها بحكم القائم بهم تشعر بعاطفة دينية فان الرجل الذي يسمى بامير المومنين ويتمذهب بمذهب الامام مالك يكون ولا بد عنده في دائرته وحاشيته من اهل العلم والمعرفة من يشدونه ويرشدونه » وكلام ابن خلدون هو هذا : « تقدم جوهر الصقلي الى سجلماسة وكان قد قام بها محمد ابن الفتح بن ميمون ... وكان قد ادعى الخلافة وتسمى بامير المومنين... وكان سنياً مالكي المذهب... » فاذا كان تمذهب شخص على حدته بمذهب هو دليل علمانية دولته فذلك احرى في حق امة بجميعها اذا اعتنقت مذهباً من المذاهب ومكانة المولى ادريس احرى بذلك بالنسبة الى دولته من الشاكر لله محمد بن الفتح .

يتبين لك ان الثقافة العربية واللغة العربية كانتا منتشرتين في المغرب قبل عهد الادارسة نعم ان للمولى ادريس فضل الزيادة في ذلك وتنمية غرسه ونشر مذهب السنة والجماعة بين اولئك الطوائف وبالطبع لا يتم عمله الا بنشر القرآن والتعاليم الدينية وقد جاء ابنه بعده وأراه لنا التاريخ ذا ثقافة عربية مكينة ولم نعرف له ترجماناً ولا عرّفنا التاريخ عنه انه كان يتكلم اللسان البربري لا هو

ولا دائرته وقد خطب خطبة العرش كأبيه بالعربية وخطبة تأسيس فاس بالعربية ونسب له قول الشعر وشعره في مخاطبة بهلول معروف حيث ان القضية واقعة حال ولو لم يكن الوسط عربياً ما كان ليخطب فيه بالعربية ولولا أنه كان مستعداً لقول الشعر لما نسب اليه الشعر ولو كذبا .

وما كانت الخطبة بالبربرية أو الكلام بالبربرية ليحط من قدر المولى ادريس فلو كانت حاجة الى ذلك لفعله او كان واقعاً لنص عليه المؤرخون وقبل هذه السنين الاخيرة لم يكن اثر للفرق بين العربي والبربري في بلاد المغرب وانما الكل قبائل مغربية يفرق بين العربي والبربري ما يفرق بين الجامعي والحياني فلم يكن المولى ادريس ليرى نقصاً في البربرية وكيف والبربر هم قوام ملكه وانما كلامه بالعربية كانت قررته الظروف المحيطة به .

ظهر من هذا ان الدولة الادريسية كانت عربية مغربية لا فرق بينها وبين اختها الدولة العلوية اليوم ابقاها الله كيف وفي عهدها اسست القرويين اقدم كلية في العالم وفي عهدها بنيت مساجد وشيدت قواعد للعروبة بهذه البلاد ثابتة وتلك هي حلقة من حلقات ماضي هذه الديار المجيدة التي يحق لنا ان نفخر بها .

هذا ولم تكن الدولة الادريسية لتضع أول نواة للعروبة بالمغرب أو أنها لم تجد للعروبة نفوذاً « حتى تصطبغ بالصبغة البربرية ليعلو نفوذها » كما يزعمه الباحث بل وجدت المغرب قد لبس حلة العروبة وتزيى بتقاليد العرب منذ أزيد من قرن وكانت فيه دول عربية كدولة بني منصور بالريف ودولة بني مدرار بسجلماسة وهؤلاء وان كانوا برابرة الاصل فقد كانوا من انصار العربية كما يسلمه الباحث فيما تقدم نقلا عن ابن خلدون وكذلك بنو عصام في سبتة وعندما أراد برغواطة المروق من الدين وافتعال قرآن يعارض القرآن العظيم لم يجدوا مندوحة عن العربية وفعلاً كان قرآنهم عربياً واداة تفاهمهم العربية والمولى ادريس نفسه لم يبايع الا لكونه جاء بدعوة عربية فكيف يميل عن العروبة الى البربرية وأحيل على المحاضرة التي اشرت اليها في معرفة تراجم بعض رجال هذا العصر واطوار الادب اذ ذاك .

أما قول الباحث : « ان المولى ادريس لم يكن في استطاعته أن يؤلف شعوب المغرب على رابطة صحيحة من العلم ولم يكن في امكانه ان يؤسس حتى المكاتب القرآنية للصبيان » فالبحث في عدم تاسيس المكاتب القرآنية على ذلك العهد من باب السماء فوقنا أو من سوء معرفة طرق البحث في التاريخ فهل يسوغ للباحث مثلاً ان يخبرنا ان دولة الادارسة لم تكن فيها سكة حديدية أو أن المولى ادريس لم يكن يتقن علم الكهرباء انما ذلك من العبث وسوء البحث فان المكاتب مما احدث بعد وانما كان القرآن يعلم في المساجد ولا زال بعض ذلك الى الآن وانما اصل الكتاتيب بيوت يخرجها الاغنياء من دورهم لقراءة اولادهم فاصبحت بعد عمومية ولا زال اثر ذلك ظاهراً بفاس الى الآن كذلك وكان يجب على الباحث التوقف في مثل هذا حتى يقف على نص .

وقد اسس المولى ادريس عند تأسيه لفاس مسجدين عظيمين وتزايدت المساجد بعد ذلك واقبلت عليه وفود المهاجرين من قرطبة لاسباب معلومة في التاريخ ومن القيروان وكانتا عاصمتي العلم ومهدي العروبة ببلاد المغرب وقد وفد من كلتا العاصمتين اقوام مثقفون معلمون لا يمكن وفودهم على بلاد قفر من العلم بربرية لا تحسن العربية ولا تقرأ القرآن ووفد على المولى ادريس كثير من قبائل العرب التي كانت متفرقة في بلاد المغرب حتى غصت مدينته بحاملي راية الثقافة العربية وكل اولئك لا تمكن حياتهم بدون وسط عربي قرآني فان لم يجدوه احدثوه هذا وقد كان القرآن وحفظه اسبق عند الامم الداخلة في الاسلام من انتشار العربية ولا زلنا نرى ذلك مشاهداً الى اليوم في تخوم السودان وآسيا فكيف بارض انتشرت فيها العربية على ما رأيت حتى عارض مارقوها القرآن وهم البرغواطيون .

كانت العربية والقرآن منتشرين بالمغرب وعلى الاقل بسهوله الواسعة وجهته الجنوبية وزاد انتشارهما اتساعاً على عهد الدولة العلمية الادريسية حتى أن الدول التي قامت بأثرها بالمغرب وكانت بربرية لم تر بدّاً من اتخاذ العربية لغة الدولة لتمكنها من النفوس وكونها اصبحت الاداة الوحيدة لتبادل الافكار وسير المعارف في البلاد هذا وكان من حق الباحث ان ينظر في سير اللغة والثقافة العربية بالمغرب قبل أن ينظر في نشأة الادب ومقدار الثروة الادبية وكان من حقه ان لايقدم على التفلسف في التاريخ حتى يعرف التاريخ ومن سكت عما لا يعلم فقد اصاب الحكمة .

واننا سنعود بعد الى مناقشة الباحث في مقاله الثالث وما فيه من تناقض وقد رأيناه آخراً ذكر المواد التي استقى منها ولم يذكر المحاضرة التي اشرنا اليها والتي حاضر بها صاحبها في مؤتمر المستشرقين بفاس بلد الباحث وطبعتها هاته المجلة في ذيلها وعلق عليها كثير من المجلات خارج المغرب .

وقبل أن أضع القلم أقول لصاحب مقال ناقش الباحث فيه وعنون عن نفسه بـ « ا غ » ونشرته المجلة مع المقال الثالث بعدد ذي الحجة انه أراد أن يشوي فرمد وانه زعم ان مدنية العرب لم تكن بمدنية الادب الذي هو مدنية كاذبة أقول له أن العرب كانوا أهل ادب وأي ادب بعد ادب العرب ومدنية العرب مدنية ادب واخلاق لا مادة وأي ادب بعد القرآن وجوامع كلم الرسول وشعر الجاهلية وشعر المخضرمين فمن بعدهم وخطب الصحابة واشعارهم وخطب المولى ادريس وشعر ابنائه هل نسي « ا غ » المعلقات واسواق العرب ودواوين الجاهلية وشعر حسان على المنبر بالمسجد النبوي وشعراء النبي صلى الله عليه وسلم وشعراء الصحابة واجازة النبي على الشعر ومحاكمة الشعراء لدى عمر بن الخطاب والادب على عهد بني امية والادب على عهد بني العباس أما المبدأ الذي جعله « ا غ » للادب العربي وهو عصر المعتصم فهو مبدأ انحطاطه وقد جمع جابي زادة علي فهم شعراء الصحابة في جزء وبلغ عددهم نحو الستين ممن وصلت اليه يده وقد جمعت لهم دواوين عديدة وجمعت مطارحات جرير والفرزدق فقط في اجزاء والادب في القرون الاولى في الاسلام بحر لا ساحل له وقد بلغ اذ ذاك عدد العلماء والفلاسفة واقطاب الحضارة العلمانية عدداً يقف عنده الحد .

محمد المهدي الحجوي

***

ردود — بلغنا رد آخر في موضوع « نشأة الادب العربي بالمغرب » ليس فيه زائد عما تناوله المقال اعلاه ، فلا نرى فائدة في نشر الرد المذكور ، ونرجو من الكاتب الفاضل السيد ابن ادريس ان يتابع بحثه القيم ، وكذلك بلغتنا ردود عن «لذعات» ابن عباد ، وقد تناول ابن عباد شعراء من طبقات مختلفة وبقي له بحث شاعر يجمع الى الثقافة العربية ثقافة غربية وبذلك يكون اتم البرنامج الذي تكفل به في الموضوع ، ففي هذا العدد سننشر احد الردود ثم ننشر بعد رداً بلغنا عن عدد حجة وأيضاً النقد الباقي لابن عباد مع ما يرد من رد — ان كان — ونقفل هذا الباب تماماً لنشتغل بغيره .

في النقد الادبي

« الاعشاب »

وأود من حضرات اطبائنا المحترمين - وحتى المتطببين منهم - ان لا يصيخوا باسماعهم لهذه المفاجأة الجريئة ولا يرهفوا آذانهم حين يسمعون لفظة الأعشاب ، فليس لنباتاتهم الطفيلية هنا من محل ! وليس من قصدنا تحليل مفرداتهم الطبية ، وانما هو « الاعشاب » اسم اختاره الشاعر محمود أبو الوفا لديوانه الجديد الذي طلع به علينا في المدة الاخيرة .

ولم نكن لنتعرض لاسم الديوان لو لم يعن الشاعر نفسه في مقدمة الكتاب ببيان فكرته في اختيار هذا العنوان «الاعشاب» كما يقول : « في هذا الكتاب طائفة من الشعر يرتفع الفن في بعضها اكثر منه في البعض الاخر ...» ولعله كان يريد ان يقول : ان ديوانه هذا كمجموعة من الاعشاب ، فيها الجيد الثمين الذي لا يقاس بقيمة وفيها ما دون ذلك مما ينزل احيانا الى حد الكلام المبتذل غير المستساغ ، ولكنه يغطي على ذلك بهذا الاسلوب الادبي فيعترف ان فيه طائفة من الشعر يرتفع الفن في بعضها اكثر من الآخر .

والواقع ان ديوانه هذا سجل لحياته الادبية في حقبة من الدهر ، عرض فيه صوراً فنية رائعة ارتفع فيها الى حد الابداع كما عرض صوراً اخرى فيها اسفاف وفيها ابتذال ، ونحسب ان الشاعر كان يروض نفسه ، وهو متأثر بظروف خاصة على القريض وفي الوقت الذي تكون نفسه عصية عليه جامحة فيراودها ولا يزال يراودها حتى تجود عليه بالقطعة من الشعر وهي على ذلك أبعد ما تكون عن الشعر وتناول الشعر .